□ عُلُوُّ هِمَّة المُجدِّدين □

« الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم ؛ يدعـون من ضلَّ إلى الهدى ، ويصبرون منهـم على الأذى ، يُحيُون بكتـاب الله عزَّ وجل الموتى ، ويُبصِّرون بنور الله أهل العمى . فكم من قتيلٍ لإبليس قد أحيوه ، وكم من ضالٍّ تائه قد هدَوْه .

فما أحسن أثرهم على الناس ، وأقبح أثر الناس عليهم ، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين ، وانتحالَ المُبطلين ، وتأويلَ الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة ، وأطلقوا عنـان الفتنة ، فهم مختلفون في الكتاب ، مخالفون للكتاب ، مُجْمعـون على مفارقة الكتاب ، يقولون على الله وفـي الله وفي كتاب الله بغير علم ، يتكلَّمون بالمتشابه من الكلام ، ويخدعون جُهَّال الناس بما يشبهون عليهم ، فنعوذ بالله مـن فتن المضلِّين »[(١)] .

« ولولا ضمان الله بحفظ دينه ، وتكفُّله بأن يُقيم له مَن يجدِّد أعلامه ، ويحيي منه ما أماته المُبطلون ، ويُنعش ما أخمله الجاهلون ؛ لهُدِّمَتْ أركانه وتداعى بنيانه ، ولكن الله ذو فضل على العالمين »[(٢)] .

« ومن المعلوم أنه كلمَّا تأخَّر الزمان ، وبَعُد الناس عن آثار الرسالة ؛ حدثت البدع والخرافات ، وفشا الجهل ، واشتدَّت غربةُ الدين ، وظنَّ الناس أن ما وجدوا عليه آباءهـم هو الديـن وإن كان بعيدًا عنه . ولكن الله سبحانه لا يُخلي الأرض من قائمٍ لله بحُجَّة ، وقد أخبر الرسول ﷺ بأن طائفة من المسلمين لا تزال على الحق لا يضرُّهُم مَن خذلهم ولا مَن خالفهم حتى يأتي أمر الله تعالى ، كما

(١) كتاب الرد على الجهمية - خطبة الإمام أحمد في هذا الكتاب .

(٢) مدارج السالكين ٢/٧٩ .

أخبر ﷺ حيث قال: « إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كلِّ مائة سنة مَن يجدِّد لها دينها »[(١)] .

قال المناوي في « فيض القدير » (٢/٢٨١ - ٢٨٢) : « أي يُقيِّض لها على رأس كلِّ مائة سنة من الهجرة أو غيرها ، والمراد الرأس تقريبًا، رجلًا أو أكثر يُبيِّن السنة من البدعة ، ويكثر العلم وينصر أهله ، ويكسر أهل البدعة ويذلّهم . قالوا : ولا يكون إلا عالمًا بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة . قال ابن كثير : قد ادَّعى كل قوم في إمامهم أنه المراد بهذا الحديث ، والظاهر أنه يعمُّ جماعةً من العلماء من كل طائفة وكل صنف ؛ مفسِّر ومحدِّث وفقيه ونحوي ولغوي وغيرهم » . انتهى .

وقد وقع مصداق ما أخبر به النبي ﷺ في هذا الحديث ، فلا يزال - والحمد لله - فضل الله على هذه الأمة يتوالى بظهور المجدِّدين عند اشتداد الحاجة إليهم »[(٢)] .

* * *

---

(١) صحيح : رواه أبو داود ، والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في المعرفة عن أبي هريرة وصحَّحه الحاكم ، والألباني في صحيح الجامع رقم (١٨٧٠) ، والصحيحة رقم (٦٠١) .

(٢) من أعلام المجددين . للشيخ صالح بن فوزان آل فوزان صـ٣ - ٤ ، دار السبيعي .

□ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب □

ومن هؤلاء المجدِّدين علاة الهمم : شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ، مجدِّد القرن الثاني عشر .

وقد ذكر المؤرِّخون كابن غنام وابن بشر وغيرهما حالةَ نجد خصوصًا - والعالم الإسلامي عمومًا - عند ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وما كانت عليه من ظهور البدع والخرافات والشركيات والجهل بحقيقة الدين الصحيح .

يقول الشوكاني : « وكم قد سرى عند تشييد أبنية القبور وتحسينها من مفاسد يبكي لها الإسلام؛ منها: اعتقاد الجهلة لها كاعتقاد الكفار للأصنام ، وعَظُم ذلك فظنُّوا أنها قادرة على جلْب النفع ودفْع الضرر ؛ فجعلوها مقصدًا لطلب قضاء الحوائج ، وملجأً لنجاح المطالب ، وسألوا منها ما يسأله العباد من ربهم ، وشدُّوا إليها الرحال ، وتمسَّحوا بها واستغاثوا . وبالجملة إنهم لم يَدَعُوا شيئًا مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام إلا وفعلوه، فإنا لله وإنا إليه راجعون. ومع هذا المنكر الشنيع والكفر الفظيع لا نجد من يغضب لله ويغار حَمِيَّةً للدين الحنيف لا عالمًا ولا متعلِّما ، ولا أميرًا ولا وزيرًا ولا ملكا . فيا علماء الدين ، ويا ملوك المسلمين ، أيُّ رُزْءٍ للإسلام أشدُّ من الكفر ، وأيُّ بلاءٍ لهذا الدين أضرُّ عليه من عبادة غير الله ، وأيُّ مصيبةٍ يُصاب بها المسلمون تعدل هذه المصيبة ، وأيُّ منكرٍ يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك البيِّن واجبًا ؟!

لقد أسمعتَ لو ناديتَ حيًّا ... ولكن لا حياةَ لمن تُنادي
ولو نارًا نفختَ بها أضاءت ... ولكن أنت تنفخ في رمادِ[1] »

وهنا ظهر الشيخ محمد بن عبد الوهاب...

---

(١) نيل الأوطار . للشوكاني ٤/٩٠ .

يقول الصنعاني ، وكان معاصرًا للشيخ محمد بن عبد الوهاب ، يصف ما يُفعل ويُمَارس حول القبور من الشرك الأكبر ، ويثني على دعوة الشيخ :

وقد جاءت الأخبارُ عنه بأنَّه يُعيد لنا الشرعَ الشريفَ بما يُبْدي
وينشرُ جهرًا ما طوى كلُّ جاهلٍ ومبتدع منه فوافق ما عندي
ويعمر أركان الشريعة هادمًا مشاهدَ ضلَّ الناس فيها عن الرُّشدِ
أعادوا بها معنى سُواعَ ومثله يغوث وَوُدّ بئس ذلك من وُدِّ
وقد هتفوا عند الشدائِد باسمها كما يهتف المضطرُّ بالصمد الفردِ
وكم عقروا في سوحها من عقيرة أُهِلَّت لغير الله جهرًا على عَمْدِ
وكم طائفٍ حول القبور مقبِّلٍ ومستلمِ الأركان منهن باليدِ

بلغ الانحطاط الفكري مبلغه في الأمة ... شرك ، واختلاط السنن ، بل ضياعها وظهور البدع ، وأُشبعت النفوس بحبِّ التقليد وتحكم فيها الجمود ، وغابت السلطة الشرعية .

وهنا ظهر الشيخ محمد بن عبد الوهاب ...

محمد بن عبد الوهاب : عنوان الأسماء العالية في التاريخ العربي الإسلامي الحديث ، كالشمس يُذكر غير ملقَّب ؛ لأنه يسمو على التلقيب بالألقاب ، والتحلية بالنعوت ؛ إنه لا يُعرف بها ، ولكن هي تُعرف به ، وإنَّ حِلية مثله لفي عَطَلِه ، والجواهر تُذكر أسماءً مجرَّدةً ، ولا تُوصف لأن معانيها هي أوصافها .

ويقال : « الشمس » و « القمر » ولا يُحلَّيان ؛ لأن حليتهما في كمالهما وتمامهما .

ما كلام الأنام في الشمس إلا أنَّها الشمس ليس فيها كلامُ

وهل يخفى القمر ؟!

وإنّ من الأسماء نكرات ، مغرقة في التنكير ، حُلِّيت بالألقاب ، ورُصَّت

لها ألفاظ التفخيم والتعظيم رصًّا ، سطورًا بعد سطور ؛ لتُعَرَّف فتُعرَف ، فما زادتها إلا تنكيرًا وضمورًا وخفاءً ، ومات أصحابها وما ذُكروا .

وقد يموتُ أُناسٌ لا تحسُّهمُ كأنهم من هوانِ الخطْب ما وُجِدُوا

وفي سمات أيام العِزَّة جمالٌ وجلالٌ فطريَّان ، عليهما من الصدق والصفاء رونق ورُواء ، وبالمعاني تُشاد المعالي ويرفع البنيان .

محمد بن عبد الوهاب : معنى كريم استقرَّ في الضمائر، وليس جسدًا تطوفُ حوله الأجسادُ . في حروف اسمه القلائل الصغار ، خصالٌ عبقرية كبار .. ائتلفت فأنشأت مزاجًا فردًا ، عجيبًا في أخْذه وعطائه .

طرازٌ خارقٌ للمألوف ، وقوة نفسية وُثقى ، متوثِّبة ومتحدِّية .. تفرض الهزيمة على القوى المضادَّة فرضًا ، وتثبُت ثبات طمَّاح الذوائب الأشمّ يوجِّه الأعاصير ، تتناوحُ من عن يمينه وشماله ، ومن أمامه ومن خلفه ؛ تريد زحزحته فترتدُّ عنه وتبيد ، وهو « هو » غير مضارٍّ .

وقيم خلقية صافية صفاء ألَق الضياء في يوم الصحو البهيج ، ليس دونه حجاب .. ترفَّعت على شهوات النفس ، وتحلَّت بالإيثار ، يصرِّفُها عقلٌ درَّاك وقلبٌ يَقِظ ، وترفُدها الركانة والزكانة ، والتصوُّر الشمولي الذي يخرج من دائرة الفكر المحدود ليبسط أبعاده على الآفاق .

ولقد جمع الله في « محمد بن عبد الوهاب » هذه الخصال جمعاء ، متمازجةً متحابَّةً ومترافدة ؛ ليجيء منه الإنسان العظيم ، الذي يصنع الصُّنع العظيم . فما الصنع العظيم الذي صنعه ؟

والجواب يصوغه واقع التاريخ وحقائقه ، ولست أنا من يصوغه، واقع التاريخ يقرِّر في صراحة ووضوح بيان أنه الرجل الذي أيقظ العملاق العربي المسلم من سُباتٍ في جزيرة العرب دام دهرًا داهرًا ، وأشعره وجودَه الحيَّ الفاعل ، وأعاد إليه دينه الصحيح ، ودولته العزيزة المؤمنة ، ودفعه إلى الحياة الفاعلة ؛

لِيُعيد سيرة الصدر الأول عزائم وعظائم وفتوحًا ..

ويقرر- غير منازَع - أنه رجل التوحيد والوحدة الذي رَفض التفرُّق في الدين رفضًا حاسمًا ، فلم يكن من جنس من يأتون بالدعوات ليضيفوا إلى أرقام المذاهب والطرائق المِذَق رقمًا جديدًا . ودعا لتحقيق « الرقم الفرد » الذي لا يقبل التجزئة وهو الإسلام ، الذي استقام به أمر المسلمين ، وكوَّن الوحدة الكبرى والدولة العظمى ، وقد انضوى تحت لوائها الخفَّاق أهلُ الأض من كلِّ جنس ما بين مشرق ومغرب .

فلمَّا أُفسد التوحيد ، وزالت الوحدة ؛ ذهب التفرُّق في العقيدة بهذا المجد العظيم ، فجاء « محمد بن عبد الوهاب » داعيًا للعودة إلى الأصل الذي قام عليه ذلك المجد وعلا سمكه وعزَّ وطال ، وقد حقَّق ما أراده في جزيرة العرب ، وأشاع اليقظة في العالم الإسلامي ، وكان لفكره في كل صَقع أثرٌ مشهود . فهذا هو الصُّنع العظيم الذي صنعه الرجل العظيم .

كان إشراق النور الجديد من قلب هذا الظلام ، من الأرض القفرة ؛ عجبًا من العجب ، ومَثار دهشةِ الغرب خاصة ، فطفقت دوَله تُحاول إبطاله ، وهو كالأتيِّ يتحدَّر دفَّاقًا من مخارم الجبال إلى أطراف الجزيرة والبلاد الإسلامية ؛ فتحًا وإنشاءً وإعمارًا لا أجلَّ منه ولا أروع، فأوحت إلى وسائل إعلامها أن تلقي الشُّبهات عليه ، وتشوِّه صورته ، فرمته ورمت الناهضَ به بالعضائه ، وقلَّصت الشأن كلَّه ، حين وضعت هذا الأمر العظيم في بؤرة الطائفية ، فنبزته بالوهابية ، وأذاعت هذا النَّبْزَ الأنباءُ الجوائب ، فتلقَّفته الأسماع وردَّدته الألسنة ، ودوَّنته الصُّحُف ودوائر المعارف الكبرى بكل لسان .

وراق الدولة العثمانية هذا النَّبْز ، فأجرته على ألسنة الدراويش ومُرْتَزِقة طعام التكايا والزوايا من تنابلة السلطان ، وأفرطت في إلقاء الشبهات عليه وتشويهه

ولاسيما بعد استفحال شأنه ، وقيام الدولة العربية الإسلامية في جزيرة العرب على أساسه وقواعده ، فلم يكن نبزٌ أشنع من نبز الوهَّابية في طول ممالكها وعرضها ، ودام ذلك أَمَدًا .

وكذلك وقف رؤساء العصبيات ، وهي مختلفة الألوان والمشارب ؛ تنكَّروا له أشدَّ التنكُّر ، وأذاعوا هم وأتباعُهم قول السوء عنه ، فقالوا فيه ما لم يقله « مالك » في الخمر .

شِنْشِنَةٌ معهودة في كلِّ زمان ومكان ، وعند كل جيل وقبيل ، ولن تجد لسنة الله في خلقه تبديلًا .

لقد استصفى ذهن الشيخ الناقد الممحِّص المحضَ واللباب ، وطرح الزؤان والزيف،وشخَّص الداءَ ، وعيَّن الدواء ، وعنده عزيمته الحاضرة تتوثَّب به ، وتحدُوه على المضي بدارًا إلى غايته ؛ وقد فعل ، ورسم الخطوط العريضة للإصلاح والتجديد ومساراته على بيِّنة من العلم ونهجه القويم . وقد وقر في قرارة نفسه أن يحقِّق في جزيرة العرب أمرَيْن عظيمَيْن متلازمَيْن لا ينفصمُ أحدهما من الآخر ، ولا يقوم أحدهما بدون الآخر :

إنشاء مجتمع إسلامي موحِّد وموحَّد ، رفيع الفكر ، صالح العمل ، حي قوي دفَّاق،متحرِّك ومتوثِّب في سبيل الخير الإنساني العام .

وتكوين دولةٍ مؤمنة قويَّة الشكيمة ، تنتظم جزيرة العرب تحت راية القرآن .

كان يؤمن ويوقن أنه لا مَعْدَّى عن العودة إلى الأصل القويم : القرآن والسنة .. إلى منبعه الصافي ومشربه العذب ؛ تتشرَّب به العقول ، وتتضلَّع بريِّه النفوس ؛ لتحيا كما شاء لها الله أن تحيا كريمة عزيزة . ذلك في فكر « محمد ابن عبد الوهاب » وخامر فؤاده ..

وإنه لمطلب في مناط الثريا ، ولن يناله إنسان قاعدٌ غير قائم ولا عامل

ناصب ، فلابد لمن أراد مثله من العمل وطول الجهاد والمثابرة والصبر .

ووجد « محمد بن عبد الوهاب » القدوة الحسنة في سيرة رسول الله ﷺ وعمله وجهاده وصبره ، فالتزمها بكل شراشره تطبيقًا جادًّا ، مثابرًا ستين عامًا إلى أن لقي وجه ربِّه ، وقد أطبق جفنيْه ورايةُ القرآن تُرفرف على جزيرة العرب ، ودولة التوحيد قائمة تنتظم البلاد .

ذلك مطلب كان في الثريا ، فأنزله بين يديه ، ورفع به أمر الحياة ، أنزله لا بعلمه وحده ، بل أنزله ومعه العلم والعمل الدائب الذي لا يفتر لحظة من اللحظات ، والعلم الكليّ بالسياسة الشرعية .

وبلغ وعيه القمة حين لاحظ أن تمام الدين بالدولة .

وبدأ المرحلة التطبيقية بعد عودته من المدينة المنورة إلى «العيينة»، وهو في التاسعة والعشرين من عمره ، ولكأني به حين أطلَّ على جزيرة العرب فردًا لا وَزَرَ له من أحد، ناجى ربَّه عز وجل أن لا يذره فردًا ، وأن يبلِّغه ما يؤمِّله، لا لدنيا يُصيبُها لنفسه ، ولكن لهداية قوم ضلُّوا عن سواء السبيل ، وانحرفوا عن الصراط المستقيم ، فأراد لهم الهداية والعزة .

مضى في الدعوة في فُتُوَّته هذه ، بقلبٍ يملؤه الإيمان واليقظة والشجاعة ، وعقلٍ تعْمُرُه الحصافة والعلم والتجارب ، وصدرٍ تتوثب فيه العزيمة الصُّلْبة والإرادة الجارفة ، وبصيرةٍ تتألَّق بالنور الذي يضيء له الدرب في ليل الناس البهيم .

استلهم روح القرآن ، ووصل أُفقه بأُفُقِه غير حائد عنه ، وتأسَّى بسلوك الرسول عليه الصلاة والسلام في جميع مراحل الدعوة سَمْتًا بعد سَمْت ، فبلَّغ كما بلَّغ ، وبشَّر ، وأنذر ... بلّغ الأفراد والجماعات ، وبلّغ الأغنياء والفقراء والرؤساء والمرؤوسين ، وسيَّر الرسل والدعاة إلى من دنا ومن بَعُدَ عن جزيرة العرب من أصحاب السلطان ، وسمع الناس منه ومن دعاته كلامًا جديدًا ، مقروءًا

ومسموعًا ، لانت له عقول قوم فدانوا وآمنوا واتبعوا ، واستغلقت عقول قوم فرفضوه ، بل نصبوا له الحرب ، ووقفوا دونه يصدُّون عنه الناس ، ويسفِّهون الداعي وما يدعو إليه من الحق ، وتألَّبوا على الرجل ، وحاولوا غِيلَتَهُ ليذهبوا بريحه ، وذهب إلى أصحاب السلطان يقنعهم بما هو عليه من الحقّ ، ليدخلوا في دعوته ، ويمنّيهم بالفوز بخيري الدنيا والآخرة إذا هم آزروه وناصروه . وقد ائتسى في هذا الشأن أيضًا بالرسول العظيم ، عليه أفضل الصلوات والتسليم ؛ فوفِّق .

وأخذ البيعة من بعضهم ؛ ليضمن قيام « الولاية » كما كان يقول أو الدولة كما يقولون اليوم ؛ ليحفظ بذلك مكاسب النصر الروحي الذي استطاع أن يحقِّقه في كثير من أرض الجزيرة، ولكِنَّ من بايعه على ذلك نقض البيعة ، لأن سلطانًا أقوى منه فرض عليه أن يتخلَّى عمّا التزمه من هذه البيعة ومن نصْر الداعي .. وهنا كان الاختيار الصعب ، وكان الموقف الحاسم الذي يقرِّر مصير الدعوة ، وكان ذلك كلُّه يتوقَّف على القوة النفسية التي حَدَتْ بهذا الداعي الكبير على أن ينهض بهذا الأمر الكبير ، وإذا هي عنده أثبت ثباتًا من الجبال ، وعند الشدائد تظهر عزمات الرجال ، فما وهن عزمه ولكنه ازداد قوة ، ولا ضعف إيمانه ولكنه ازداد يقينًا بنصر الله له ، وانتقل إلى حيث يأمل أن يدخل في دعوته من الأمراء مَن ينصره ويقيم « الولاية » .

وكأن الله ادَّخر الخير كلَّه لمن هو أهله من أمراء الجزيرة الكبار أصحاب الشوْكة والصَّوْلَة ، لأمرٍ أراد سبحانه كَوْنَه ودوامه ، فساقه التوفيق إلى « الدرعية » ، **وكم لله من إرادات يكتب بها لأناسيّ، ويحرمها أُناسِيّ آخرين !** وكان أمير الدرعية « محمّد بن سعود » نائمًا ، فاحتضنته السعادة بقدوم هذا الرجل الكبير عليه ، وكان ذلك قدرًا من الله مقدورًا ، ولله عاقبة الأمور .

قذف الله في قلب هذا الأمير الموفَّق حبَّه وتصديقه واستجابته لما دعاه إليه من دعوته ، فبايعه على أن ينصره نصرًا مؤزَّرًا ، ويُعِزَّ الإسلام ويحميه ، ويعيدَ إليه رونقه وجلاله وقوَّته الفاعلة في جزيرة العرب تحت « راية القرآن » .

وأنشأ الله على يده قيام الدولة العربية الإسلامية التوحيدية في جزيرة العرب ، بعد غياب عنها دام أكثر من ألف عام ؛ وذلك لتعود جزيرة العرب كما بدأت مركز إشعاع على العالم ، وليبقى المُلْك في عَقِب هذا القائد المؤمن الصادق إمامًا بعد إمام ؛ ما لزموا نَهْج الإسلام الصحيح ، وأَعدُّوا ما استطاعوا من قوة، وبرُّوا واتّقوا، وصَلَحُوا وأصلحوا وصاروا وصار العرب والمسلمون معهم يدًا واحدة .

وفي هذا بلاغ ، والله يفعل ما يشاء :

لقد كان التقاء « محمد بن عبد الوهاب » بـ « محمد بن سعود » توفيق قَدَرٍ لقَدَرٍ ، ولأمرٍ أراد الله إنفاذه على يديهما معًا . ولست أدري أكان يتمّ لـ « محمّد بن عبد الوهاب » أمره لو لم ينهض «محمد بن سعود » لبيعته ونصره ؟ وكذلك ما كان يكون من رفعة الشأن لمحمد بن سعود وعَقِبه لو رفض دعوة « محمد بن عبد الوهاب » ، ولبث حيث هو أميرًا على قرية ؟ بل ما كان يكون عليه جزيرة العرب وأقدار العرب، لو بقيت على عزلتها وغطيطها في نومها الطويل قبل صرخة محمد بن عبد الوهاب ؟.

عقلان كبيران التقيا ، وقلبان صافيان اتّحدا ، وروحان قويّان تحابّا وامتزجا ؛ فأتيا بالعجب العجاب !!

إن كلَّ دعوةٍ من الدعوات ، وكلَّ عملٍ من الأعمال إنما تعرف قيمته من ثمراته المترتبة عليه ، ومن أثره الذي يتركه . وإن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لما كانت دعوة خالصةً لله ، مترسِّمةً منهج رسول الله ﷺ معتمدةً عليه ، ومستمدَّةً من الكتاب والسنة ؛ صار لها أطيب الأثر ، واستمرَّ نَفْعُها وبقي أثرها ، وأنتجت

للأمة خيرات كثيرة؛منها :

● قيـام دولة إسلامية تحكم بشريعة الله ، وتشدُّ أَزْرَ المسلمين في كل مكان ، وتنشر دعوة الإسلام .

● تصحيح العقيدة الإسلامية مما عَلِق بها من الشركيَّات والبدع والخرافات، وإرجاعها إلى منبعها الصافي من كتاب الله وسنة رسوله . وقد طهَّر الله كل الجزيرة من جميع مظاهر الشرك والبدع والخرافات .

● امتداد أثر هذه الدعوة المباركة خارج بلادها ، حتى انتفع بها مَن هَدَفُه الحق في مختلف بلدان العالم الإسلامي ؛ في الشام ومصر والمغـرب العربي، وإفريقيا والسودان واليمن والعراق، والهند والباكستان وأندونيسيا وغيرها.

● وجـود حركة علمية واعية متحرِّرة من التقـليد الأعمـى ؛ فانتشـر التعليم في المساجد في مختلف مناطق الجزيرة ، حتى تخرَّج منها علماء أفذاذ في حياة الشيخ وبعدها .

ولنترك أحداث التاريخ لكُتب التاريخ ، ولننظر إليها بعين الخيال يطوف على مسـارح الجزيرة ؛ لِتُشَاهد مواكب التوحيد موكبًا إثْرَ موكـب ، ترفـرف عليها راية القـرآن ، وتحدوها أهازيج النصر بكلمة الله العليا : « لا إله إلا الله محمد رسول الله ، والله أكبر » فيتلفَّت الدهرُ ، ويهتزُّ الثرى ، وتردِّد الصَّدَى السماءُ ، ولله العزّةُ ولرسوله وللمؤمنين ، فقد صدق الله وعده ، وأيَّد جنده ، ونصر حزبه ، وحزبُ الله هم المنصورون .

وتطبق الأجفان على هذه المواكب ؛ لتحفظ صورها الروائع في سواد العين ، وهي مواكب خوالد ، لا تبرح ذاكرة التاريخ ، نظمها جهادُ هذين العربيين المسلمين العظيمين ملاحم كالشعر ، ترينا أكبر نقلة في هذا العصر الحديث من الخرافة إلى الحقيقة ، ومن التّفرُّق إلى التوحُّد ، ومن الجمود إلى الحركة ، ومن الانطواء إلى الانتشار ، ومن الانغلاق إلى الانفتاح .

وليكن هذا شأن العرب والمسلمين إلى الأبد ، إذا شاءوا أن يحيَوْا سادةً في أوطانهم ، وأحرارًا أعزة .

لقد ظلت هذه الملاحم الخوالد إلى هذه الساعة دون أن تنال حظًّا من التصوير البارع ، فهي تستشرف القلمَ الصَّنَّاع يرسم واقعها الخياليّ وخيالَها الواقعي ، ويجسِّدُ مواكبها ومعانيها في ألواحٍ من النثر الفني البياني الرفيع ، والشعر « الشاعر » العبقري الأصيل ؛ تُحْدِث البهجة في النفوس ، وتهيج العزائم للاقتداء .

فهل من فتى نابغ من أبناء هذه الجزيرة المتميزة ، أمّ البطولات والعطاء ومصدر الفصاحة والبيان ، يُعِدّ مواهبه لهذا الخير ، ويصوِّر جلال هذه العبقريات التي أطلت بها على الدنيا في هذا العصر الحديث ؟ إني لأطمع ولا أقطع الرجاء .

إنّ « محمد بن عبد الوهّاب » لم يُعرف على حقيقته بفكره الكوني وآفاقه ومعناه .. إنه من معنى الإسلام كبيرٌ وكريم ، والمعنى الكبير إنّما يحمله إلى العقول البيانُ الرفيع ، فهل حمل روحَ الإسلام وجماله وجلاله إلى أُمم الأرض من كل جنس ولون ، غيرُ الإعجاز البياني في كتاب الله والسّنة الصحيحة المطهَّرة ؟!

نضَّر الله وجه « محمّد بن عبد الوهاب » .. ما أبهاه بين وجوه المصلحين المجدِّدين الأفذاذ ! وما أجلَّ جهاده في الله ، وأكرم دعوته إلى الله .. إلى الصراط المستقيم ! ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [الأنعام : ١٥٣][1] .

---

(١) نقلًا بتصرف عن محمد بن عبد الوهاب داعية التوحيد والتجديد في العصر الحديث . للشيخ محمد بهجة الأثري – وكتاب من أعلام المجدِّدين . للشيخ صالح بن فوزان .

□ الشيخ حسن البنا رحمه الله مثالٌ جميلٌ لعُلُوِّ الهمَّة □

كانت له رحمه الله همَّة عالية وعزيمة نادرة ، كيف لا وهو القائل : « أحلام الأمس حقائق اليوم ، وأحلام اليوم حقائق الغد » ، و « دقائق الليل غالية فلا تُرخصوها بالغفلة » .

كانت حياته لا تعرف إيثار العافية والراحة ، خذ مثلًا لذلك : رحلة من رحلاته بدأت في الربيع الثاني ، وانتهت في ٩ جمادى الأول عام ١٣٥٢ ، زار خلالها « أبو صير » شرقية ، الإسماعيلية ، السويس ، بورسعيد ، الدقهلية بفروعها ، طنطا ، شبراخيت ، المحمودية « بحيرة » دمنهور « بحيرة » ، شلنجة « قليوبية »[1] .

يقول أحد مرافقيه : « كان يقطع الوجه القبلي كلَّه بلدًا بلدًا ، وقرية قرية ، في عشرين بلدًا ، في بعض الأحيان يصبح في « بني سويف » ، ويتغدَّى في « ببا » ، ويمسي في « الواسطى » ، ويبيتُ في « الفيوم » .. وهكذا كان ينام ساعة أو بعض ساعة ، وفي الوقت الذي يضع فيه رأسه على الوسادة ينام ونحن نتحدَّث من حوله » .

أليس في حياة هذا الطوْد درس للكسالى الذين يقتلُهم الفراغ ، ومع ذلك يتحدَّثون عن ضيق الوقت ؟!

أوليس في حياة هذا الداعية المجدِّد عبرة للذين يتباكون على واقع المسلمين اليوم ، ولا يقدِّمون للعمل الإسلامي إلَّا فضلات أوقاتهم ، فالوظائف تستهلك معظم أوقاتهم ، والزوجة تستهلك بقية الوقت وهي لا تفتأ تردِّد : « خيرُكم خيرُكم لأهله » . والمسكين يخلط بين فهْم خاطئ للحديث ، وبين طاعة امرأة

---

(١) مذكرات الدعوة والداعية ص١٥٤ .

لا يُرضيها - في كثير من الحالات - إلا أن تستحوذ عليه ، وتحول بينه وبين الناس ، وبينه وبين الدعوة والجهاد في سبيل الله .

ولله درُّه حين اشتكت زوجه مرض ابنها الخطير ، فقال : إن جدَّه يعرف طريق المقابر .

وحينما أسَّس جماعة الإخوان[1] في عام ١٩٢٨ ، حدَّد فقرات منهاجه :

١ - نريد أولًا الرجل المسلم في تفكيره وعقيدته ، وفي خُلُقِه وفي عاطفته ، وفي عمله ، وفي تصرُّفه ، فهذا هو تكويننا الفردي .

٢ - ونريد البيت المسلم .. ونحن لهذا نُعْنى بالمرأة، ونُعْنَى بالطفولة.

٣ - ونريد بعد ذلك الشعب المسلم في ذلك كله .

٤ - ونريد بعد ذلك الحكومة المسلمة التي تقود هذا الشعب إلى المسجد ... ونحن لا نعترف بأي نظام حكومي لا يرتكز على أساس الإسلام ، ولا يستمدُّ منه ، ولا نعترف بهذه الأحزاب السياسية ، وسنعمل على إحياء نظام الحكم الإسلامي بكلِّ مظاهره ، وتكوين الحكومة الإسلامية على هذا الأساس .

٥ - ونريد بعد ذلك أن نضمّ إلينا كلَّ جزء من وطننا الإسلامي .

٦ - ونريد بعد ذلك أن تعود راية الله خفَّاقة عالية على تلك البقاع التي

---

(١) كل إنسان يُؤخذ من قوله ويترك ، وكذا الجماعات ، فولاؤنا لله ورسوله مطلقًا ، ونقول لكلِّ من يتعَصَّب لجماعته واتجاهه: دعوها فإنها مُنْتِنَة ، ولا عودة للإسلام إلا بالكتاب والسنة ، بفهم سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ، ومع هذا « فالبصير الصادق يضرب مع كلِّ قوم بسهم ، ويعاشر الناس على أحسن ما عندهم » ، كما قال ابن القيم .

سعدت بالإسلام حينًا من الدهر .

٧ - ونريد بعد ذلك ومعه أن نُعلِن دعوتنا على العالم ، وأن نعمِّم بها آفاق الأرض ، وأن نُخْضِع لها كلَّ جبَّار .

إن أُناسًا سيقولون : هذا خيال وأوهام . وذلك هو الوَهَنُ الذي قُذف في قلوب هذه الأمة فمكَّن لأعدائها فيها ... وإنما نُعْلن في صراحة ووضوح أن كل مسلم لا يؤمن بهذا المنهاج ولا يعمل لتحقيقه ؛ لا حظَّ له في الإسلام ، فليبحث له عن فكرة يدين بها ويعمل لها . ولم يكن الشيخ يريد بذلك تكفير أحد من الناس .

وحينما قطع البنا مراحل مهمة في بناء جماعته ، وعندما توسَّعت هذه الجماعة وعَظُم شأنُها في مصر وكثُرُ أتباعها ؛ كان لا بدَّ أن يضع لها منهجًا علميًا تتربَّى عليه ؛ ولهذا فقد طلب من الشيخ سيد سابق - وكان من كبار العاملين في هذه الجماعة - أن يقوم بتأليف كتاب في الفقه ، واتفق معه على سمات هذا الكتاب ، فألَّف الشيخ سيد سابق كتاب « فقه السُّنَّة » ، وكتب الشيخ البنا تَقْدِمَتَه ، وأصبح مقرَّرًا في منهج الجماعة ، في وقتٍ كانت تهيمن الصوفية والمذهبية على أجواء العلماء والمعاهد في مصر .

وكان محدِّث ديار الشام الشيخ الألباني مُنْصِفًا - كما عَوَّدنا - عندما عدَّ تأليف وتدريس هذا الكتاب مكرمة من مكارم البنا رحمه الله .

وأراد - رحمه الله - تربية أتباعه على التمسُّك بالكتاب والسنة ، وحذَّرهم من البدع والجمود والخرافات ، ومن تقديس أقوال الرجال وتقديمها على الكتاب والسنة .

ويا ليت أن الأتباع والجماعة وعَوا الدرس جيدًا ؛ إذن لتقدَّمت الحركة الإسلامية بخطًى واسعة ، ولضُيِّق حجم الخلاف بينها .

قال البنا - رحمه الله - في « رسالة التعاليم » : « وكلُّ أحدٍ يُؤخذ من كلامه

ويُترك إلا المعصوم ﷺ ، وكلُّ ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم موافقًا للكتاب والسنة قبِلْناه ، وإلا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالاتباع » .

وأقولها خالصة لوجه الله : لو أن جماعة الإخوان المسلمين جرَّدت ولاءها للكتاب والسنة ، وللكتاب والسنة فقط ، ولم تقدِّس أقوال الرجال؛ لأتى منها خيرٌ كثيرٌ لا يستطيع الإنسان تصوُّره .

لقد قابل الشيخ البنا صعوبات كثيرة ؛ حاربه المستعمرون الإنجليز ، وفاروق وزبانيتُه وهم الذين دبَّروا محاولةَ اغتياله ، وحاربه حزب الوفد ووسائل الإعلام ، والأحزاب العلمانية ، وحاربه ضعاف النفوس من رفاق درْبه الذين انضمُّوا إلى حزب الوفد ، واشترى الإنكليز وفاروق والأحزاب ذِمَمَ بعض كبار الأدباء والمفكِّرين ، حتى كتب أحدهم ذات مرة بأن حسن البنا من أصول يهودية ﴿ **كَبُرت كلمةً تخرُج من أفواههم إن يقولون إلَّا كذبًا** ﴾ .

وكان رحمه الله على جانبٍ عظيم من حُسْن الخُلُق ؛ يقول الأديب الكبير أحمد حسن الزيات : « وجدتُ فيه ما لم أجد في قبيله ، أو أهل جيله ؛ من إيمان بالله راسخ رسوخ الحق ، لا يزعزعه غرور العلم ، ولا شرود الفكر . وفقهٍ في الدين صاف صفاء المُزْن ، لا يكدِّره ضلال العقل ، ولا فساد النقل . وقوةٍ في البيان مشرقة إشراق الوحي ، لا تحبسها عقدة اللسان ، ولا ظلمة الحس ، إلى حديث يتصل بالقلوب ، ومحاضرةٍ تمتزج بالأرواح . وجاذبيةٍ تدعوك إلى أن تُحبَّه ، وشخصيةٍ تحملك على أن تُذْعِن !! » .

ثم قال الزيات : « والفطرة التي فُطر عليها حسن البنا ، والحقبة التي ظهر فيها حسن البنا تشهدان بأنه المصلح الذي اصطنعه الله لهذا الفساد الذي صنعه الناس »(١) .

---

(١) حسن البنا ، الداعية الإمام والمجدِّد الشهيد لأنور الجندي صـ ٢٦٨ .

لقد كانت أخلاقه قمة في المثالية مع مخالفيه ، وما أشد حاجة الدعاة إلى أخلاق كخُلُق البنا رحمه الله .

ولقد نجح الشيخ البنا في تحويل الأفكار إلى واقعٍ ملموس ، وصار لجماعته جانب ملحوظ وملموس في جوانب البر والخدمات الاجتماعية ، وأسَّس رحمه الله الشركات الاقتصادية ، وكان من أشهرها ؛ شركة المعاملات الإسلامية ، والشركة العربية للمناجم والمحاجر ، وشركة المطبعة الإسلامية ، والجريدة اليومية ، وشركة التجارة والأشغال الهندسية بالإسكندرية ، وشركة الإعلانات العربية ، فضلًا عن تأسيس المستشفيات المجانية . وأرهبت هذه الشركات فاروق والأحزاب والإنكليز .

ولقد كان الرجل جادًّا عندما نادى بتحرير مصر وبلدان العالم الإسلامي ، والمجدِّد لا يعرف الهزل في قضايا دينه وأُمَّته ؛ لقد أخذ رحمه الله يخطِّط لطرد الإنجليز من مصر وطرد اليهود من فلسطين ، وشكَّل تنظيمًا عسكريًا قويًّا اشترك به في حرب فلسطين . قال رحمه الله : « وفي الوقت الذي يكون فيه منكم – معشر الإخوان المسلمين – ثلاثمائة كتيبة قد جهَّزت كل منها نفسها ؛ روحيًّا بالإيمان والعقيدة ، وفكريًّا بالعلم والثقافة ، وجسميًّا بالتدريب والرياضة ، في هذا الوقت طالبوني أن أخوض بكم لُجَجَ البحار ، وأقتحم بكم عنان السماء ، وأغزو بكم كلَّ عنيدٍ جبار ؛ فإني فاعل إن شاء الله ... » . وأمر البنا إخوانه في مصر وسورية والأردن دخول حرب فلسطين ، وأبلت هذه القوات بلاءً حسنًا ، وكان اليهود يهابون المعارك التي تواجههم فيها كتائب الإخوان ، كما شهد رئيس أركان الجيش المصري في المحكمة وهو ليس منهم ، وليس من مؤيِّديهم .

ولا ينسى التاريخ جند عز الدين القسَّام ، والحاج أمين ، وعبد القادر الحسيني ، وكتائب يوسف طلعت عمر بن عبد العزيز ، وغيرها الذين استماتوا

في الدفاع عن فلسطين .

ولن ينسى الإنجليز معارك القناة ، ولشدَّما أرعبتهم عمامة الشيخ محمد الفرغلي إذا لاحت عمامته لهم .

هذا جانب تجديدي من تجديد حسن البنا ، وهذه صفحات مشرقة من تاريخ هذا الرجل في الجهاد[1] .

قال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله : « القادة الذين مدُّوا رواق الإسلام في هذا العصر ، وربّوا جيلا يتعشَّقه ويفنى فيه ؛ كانوا طرازًا خاصًّا من أصحاب القلوب الكبيرة والمشاعر المشبوبة ، ما إن تتصل بهم حتى تُحِسَّ إيحاءً دافقًا يتغلغل فيك ويخلعك من حاضرك وماضيك ، ويُسيِّرك مع القافلة الهاتفة لله ، العاملة لله .

ولست أنسى طريقة حسن البنا في صَقْل الأرواح ، ووصْلها بينابيع الحياة ، والحركة من كتاب الله وسنة رسوله .. والتربية الروحية فن دقيق .

والفتيان الأخيار الذين شرَّفوا الإسلام في هذا العصر ، هم ثمارٌ ناضجة لهذه التربية الروحية الموفَّقة ، فروسيَّتهم بالنهار وليدةُ رهبانيَّتهم بالليل ، ونجاح خطاهم في الحياة أثر صلتهم الموثَّقة بالله .

قد كان حسن البنا من أولئك الرجال الذين يظهرون في التاريخ على نُدرة ، ويُحْدِثون بمسلكهم الفذ موجات جارفة من الحركة والتجديد والمغامرة ، فيضيق به مَن يضيق ويَهَشُّ له من يهش ، ثم يميز الله الخبيث من الطَّيِّب ؛ فيعرف البشر جهد الجاهدين لهم ، والعاملين لخيرهم ، وتلهج ألسنتهم ثناءً وتنويهًا بأمرهم .

عن أبي ذر أنه قال : يا رسول الله ، الرجل يعمل العمل يحمده الناس عليه ،

---

(١) مجدِّدون معاصرون . العدد السادس عشر والعدد السابع عشر من مجلة « البيان » .

ويثنون عليه به ؟ فقال : « تلك عاجل بشرى المؤمن »[١] .

ولسنا عُبَّاد أشخاص ، وإنما نكرم المبادئ فحسب في الرجال الذين يحيون لها ، ويتجردون إلّا منها .

كان هذا العملاق رجلًا واسعًا ، في نفسه مجالات شتى للأمزجة المتباينة والبطولات المنوعة ، وذاك سِرُّ نجاحه في التجمع الغريب الذي قام به .

لقد التفَّ حوله ألوف وألوف ، فأحسن توجيههم ، وأمكنهم من العمل للإسلام ، فأفادوا واستفادوا .

وإذا كـان القائد الذي يُحسن الانتفاع مما معه عظيمًا ، فأعظم منـه - ولا شك - هذا الذي يوجد في بيئة لا تعطيه شيئًا ألبتة ، ثم هو مع ذلك الفراغ يخلُق خلقًا الوسائل التي يُدرك بها غايته ، ويحقِّق رسالته .

وعليـه - في سبيل ذلك - أن يُوجد الجندَ ، وأن يُمـهِّد الميـدان ، وأن يبتدع الأسـاليب ، وأن يُكافح الزمن ، وأن تكون نفسه الكبـيرة ينبوعًا دافقـًا بالحياة والنشاط ؛ ليمدَّ هذه النواحي جميعًا ، بما يصل بها إلى نهايتها المنشودة .

وهذا الطراز من القادة يظهر في الحياة على نُدرة كما قلنا ، ومنهم الشهيد[٢] حسن البنا .

كان حسن البنا - حيث حلَّ - يترك وراءه أثرًا صالحًا .

وما لقيه امرؤ في نفسه استعداد لقبول الخير ، إلَّا وأفاد منه ما يزيده صِلةً بربِّه ، وفقهًا في دينه ، وشعورًا بتبعته نحو الإسلام والمسلمين .

---

(١) رواه مسلم وأحمد .

(٢) لا نجزم بالشهادة إلا بما جزم له رسول الله ﷺ ، نحسبه صالحًا ولا نُزكِّي على الله أحدًا ، ونسأل الله أن يتقبَّله في عداد الشهداء ؛ جزاء ما قدَّم لأُمَّته .

والرجل الذي يشتغل بتعليم الناس ، لا يستطيع في أحيانه كلِّها أن يرسل النفع فيضًا عذقًا ، فله ساعات يخمد فيها ، وساعات يتألّق ويُنير ؛ إن الإشعاع الدائم طبيعة الكواكب وحدها .

وقد كان حسن البنا ، في أُفقه الداني البعيد ، من هذا الطراز الهادي بطبيعته ؛ لأن جوهر نفسه لا يتوقّف عن الإشعاع .

سل الألوف المؤلَّفة التي التقت به ، أو التي أشرق عليها الرجل في مداره العتيد ؛ ما من أحد منهم إلا وفي حياته ومشاعره وأفكاره أثرٌ من توجيهات حسن البنا ؛ أثر يعتزُّ به ، ويغالي بقيمته ، ويعتبره أثمن ما أحرز في دنياه .

كانت لدى حسن البنا ثروة طائلة من علم النفس ، وفن التربية ، وقواعد الاجتماع . وكان له بصرٌ نافذ بطبائع الجماهير ، وقيم الأفراد ، وميزان المواهب ...

لقد كان موفَّقًا في اصطياد الرجال وكانت كلماته البارعة تأخذ طريقها المستقيم إلى عقولهم فتأسرها ، وشغاف قلب السامع ، يمكن أن يقال فيه : ﴿ **وما رميْتَ إذ رميتَ ولكن الله رمى ...** ﴾ الآية [الأنفال : ١٧] .

إن السماء وحدها التي تصنع للإنسان القبول في الأرض ؛ وقد كان حسن البنا ملاحَظًا بعناية الله من هذه الناحية الهامة ، فالتوفيق الذي صَاحَب دعوة حسن البنا ، والنجاح الباهر الذي صادفه ؛ لم يلقه غيره مع تشابه الأداة .

وقد بدأ حسن البنا يربِّي الجيل الجديد للإسلام ، على الأساس الذي وضعه للنهوض به ، إنه يريد تكوين دولة إسلامية ، وإقامة حكم شرعي رشيد ، فسلك إلى الغاية الطريق الوحيد الذي ينتهي بها ، وإن طال المدى ، وتراخت الأيام وكثُرت التكاليف ؛ طريق التربية الإسلامية .

عرف حسن البنا أن المسلمين هُزموا في مواقع شتَّى ، وعرف الرجل أسباب الهزيمة معرفة دقيقة ؛ إن النفوس قد تحلَّلت بالمعاصي ، والجماعة قد انحلّت بالإسراف ،

والدولة قد تهدَّمت بحبِّ الدنيا وكراهية الموت ؛ ومن ثَمَّ انتصر الكافرون . فيجب أن تُقَوَّم النفوس بالطاعة ، وأن يُحارب السَّرَف والتَّرَف بالاقتصاد والاجتهاد ، وأن تُعلَّم الأمة الإقبال على المخاطر لتسلم لها الحياة ، وأن يتمَّ ذلك كلُّه على دعامةٍ موطَّدةٍ من قُوَّة الصِّلة بالله ، تشقُّ الحناجر بهذا الدعاء : ﴿ **ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبِّت أقدامنا وانْصُرنا على القوم الكافرين** ﴾ [آل عمران : ١٤٧] .. ومن ثمّ ينتصر المؤمنون .

على هذه الصخرة من علاقة الفرد بربِّه ؛ علاقة إنتاج وإقبال واستغفار ، لا علاقة كسل وإدبار – كان حسن البنا يجمع اللبنات الجديدة ؛ لإعادة ما انهدم من أركان الحكم الإسلامي النظيف . وما صدَّق الناس سلامة هذا الاتجاه في التربية ، حتى شهدت بادية الشام وشطآن القناة أحفاد خالد وأبي عبيدة وابن العوام؛ وابن الصامت ، صورًا متشابهة تتكرَّر بها معجزة رسول الله في الآخرين ، كما بدأت في الأولين .

لقد كان حسن البنا واحدًا من علماء كثيرين ظهروا في العصر الأخير ، لهم فقه جيد في الإسلام ودروس رائعة ، بيد أن حسن البنا يمتاز عن أولئك بخاصَّة أُتيحت له وحده ، ولم يُرزق غيره منها إلا القليل ، خاصَّة تأليف الرجال ، والاستيلاء على أفئدتهم ، وغرْس علمه في شغاف قلوبهم ، وأخذهم بآداب الإسلام ، في تلطُّف وإحسان ساحرَيْن .

الحب لا الحقد ، والشوق لا الوحشة ، والعفو لا العقوبة : هي العناصر التي توجد مبعثرة لكثرتها في حياة كلِّ رجل عظيم ، وقد كان حسن البنا مثلًا كريمًا لهذه العناصر الكريمة .

لقد جاب الآفاق وهو يُذكِّر بالله ويُعَرِّف بدينه ، وأحسبُه قضى تسعة أعشار عمره مسافرًا يضرب في مناكب الأرض لا يقصد من حِلِّه وترحاله إلَّا بعْث أمة وإحياء تاريخ ، وأحسبُه أولى الناس بقول الشاعر :

يقولون لـي ما أنـت فـي كـلِّ بلـدة   وما تبتغي ؟ ما أبتغي جلَّ أنْ يُسمَى

قال المهلهل في رثاء كليب ، وقد رأى الدنيا تغيرت بعده ، وتصدَّر للناس من ليس للسيادة أهلًا ، وأكثر اللغط من كان يحبس لسانه في فَمه وجلًا ، وابتذلت القضايا الكبرى فخاض فيها السُّوقة ومَن إليهم ، ممن يحلُّون مشكلاتهم بالسباب والوقاحة ؛ ينظر مهلهل إلى هذه الحال بعد فقْد أخيه ، ثم يقول :

نُبئت أن النار بعدك أُوقِدَتْ   واستبَّ بعدك يا كليبُ المجلسُ
وتحدَّثوا في أمر كلِّ عظيمةٍ   لو كنت حاضرهم بها لم يَنْبِسوا

ولا أدري ما الذي جعلني أُردِّد هذين البيتين بعد بضع سنين من اغتيال حسن البنا ؟ لقد بكيت مصرعه يوم قُتل ... وكنتُ بعد وفاته ألصق به مني في أثناء حياته .

لا أدري ما الذي استوقفني في هذين البيتين ؟

لا ، بل إنني أدري !!! وإن بَعُد المدى بين رجل من صميم الجاهلية ورجل من ألوية الإسلام ؛ لكأنَّ موت حسن البنا كان إيذانًا للصوص بأن الحارس اليقظ قد قضى ، فلا عليهم أن يختلسوا وأن يغتصبوا في طمأنينة من أيَّة مؤاخذة ... لكأنَّ الرجل كان سدًّا تحتبس وراء أسواره العالية أمواج الفوضى والعصيان والفسوق، بل تنحسر وتتقهقر ، فلمَّا ولَّى تحرَّك الطوفان الأعمى ليدمِّر الفضيلة والإيمان ، وليجتاح سَيْلُه المجنون كلَّ ما شاد الخيرُ والبرُّ من شعائر ومآثر !!

كان المستشرقون والأدباء الكبار وأساطين التبشير في الشرق يبذلون جهود الجبابرة ليبذروا بذور الإلحاد في الأوساط الجامعية ، وكانت السياسات الاستعمارية من ورائهم ، والأموال الغزيرة في أيديهم ، والحكومات الضعيفة في ركابهم . ومع حِدَّة هذا الهجوم وسطوة أصحابه ؛ فقد استطاع حسن البنا أن يكسر شوكته ، وأن ينكِّس رايته ، وأن يجعل طبول الإيمان تدقّ بقوة ،

والشباب الجديد يعرف ربَّه ، ويتعصَّب لدينه ؛ فإذا أمل الاستعمار يخبو ، وجيشه الزاحف يكبو .

ولَّى حسن البنا ، فإذا الإسلام لا يُهاجم من كبار الأدباء فحسب ، بل من كلِّ صُعْلوكٍ حمل القلم ومُكِّن من أن يضع الحبر على الورق !!!

إنـي لألتفتُ يَمنةً ويَسرةً وقد أخذتني الدهشة لكثرة الكلاب التي تنبح الإسلام ، وتتحرَّش برجاله وتكشِّر عن أنيابها ، وكأنها تريدُ قضْم أبدانهم ، أو على الأقل تمزيق ثيابهم ، وخمْش وجوههم ، وردّهم عن طريقهم ، ما هذا كله ؟!!

ما معنى أن ترى إنسانًا لا يُحسن قراءة بيتٍ من الشعر ، ولا سطرٍ من النثر قراءة صحيحة ، يحاول أن يكون مفسِّرًا للقرآن ، ومجتهدًا في تقرير أحكامه ؟!

ما معنى أن يستميت أديبٌ مشهور في تغيير الهجاء العربي ؛ تمهيدًا لقبر الحروف العربية ، وإماتة لفظ لغة القرآن ؟!

ما معنى الجراءة المستغربة في الدعوة إلى إباحة الزنا وتيسير الدعارة في الصحيفة نفسها التي تدعو إلى تحريم الطلاق ، وتقييد تعدُّد الزوجات ؟!

ما معنى الإلحاح على الشباب أن ينسى الألوهية ، وأن يفكَّ من سلوكه قيود الإيمان ؟!

ما هذا الإلحاح على الأُمَّة كي تتبرأ من تاريخها ، وتتسوَّل أسباب نجاحها من تحت أقدام الغزاة ؟!

ما سِرُّ هذه البغضاء الحالكة على الإسلام وأهله ؟!

أَكُلُّ امرئ نبت في بيت لا يعرف له أبًا ، أو يعرف أباه خادمًا للاستعمار ؛ يريد أن يطفح بسوئه على هذه الأمة لترضى الرذائلَ شريعةً ، واتباع الأجانب دينًا ؟!

إذا كنا نأسى على قتْل حسن البنا ؛ فلأن هذا الداعية الكبير قلَّم أظافر هؤلاء جميعًا ، فجعلهم يحسبون ألف مرة قبل أن يفكِّروا في لمْز الإسلام ، أو استهجان شيء منه !! »[1] .

وقفة أخيرة مع الشيخ حسن البنا :

لا يُنكِر أحدٌ عظم البنا كداعية دعا إلى شمولية الإسلام ، إلا مَن ينكِر الشمس في رابعة النهار .. ولو لم يكن له من فضْل إلا هذا لكفاه ... وكلُّ إنسان يُؤخذ من قوله ويُردُّ ، ولكل جوادٍ كبوة . وأمام التحقيق العلمي له آراء جانَبه فيها الصواب ، و « كفى المرء نُبْلًا أنْ تُعَدَّ معايبه » ، « وإن الماء إذا بلغ القلَّتين لا يحمل الخَبَث » ، فما ظنُّك إذا كان الماء نهرًا دافقًا . ولكن لا يُؤخذ بقوله في مسألة التوسُّل ، ولا في مسائل الأسماء والصفات وتفويض المعنى فيها ، فقد كبا جواده في هذا ، ولا في بعض مسائل الولاء والبراء . أما الذين يتحدَّثون عن صوفية البنا في صغره وبدء حياته ، فعليهم أن يشهدوا برجوع الرجل عما كان عليه ، كما جاء في المذكرات صـ١٣٢ حيث قال عن الصوفية : « حضر إلى الإسماعيلية ... من القصاصين وهو يدعو إلى الطريقة ، وله أفكار خاصَّة تنافي آمالي الإسلامية ... لقد آن الأوان الذي أعتزل به عن كلِّ هذه الدعاوى المشتبهة ، وأكشف فيه عن الغاية للإصلاح الإسلامي ، الذي يتلخَّص في الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ، وتطهير العقول من هذه الخرافات والأوهام ، وإرجاع الناس إلى هدي الإسلام الحنيف » .

* * *

(١) مقتطفات من كتاب « في موكب الدعوة » . للشيخ محمد الغزالي .

شيخ المحدِّثين ، مجدِّد العصر ، محدِّث ديار الشام : فضيلة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني

إن لله رجالًا مؤمنين يحفظ الله بهم الأرض ، بواطنهم كظواهرهم بل أجلى ، وسرائرهم كعلانيتهم بل أحلى ، وهممهم عند الثريا بل أعلى ، تحبُّهم بقاعُ الأرض ، وتفرح بهم أملاكُ السماء .

قال الشيخ ابن باز يومًا في الشيخ : « ما رأيت تحت أديم السماء عالمًا بالحديث في العصر الحديث مثل العلامة محمد ناصر الدين الألباني »(١) .

وبعث إليه الشيخ محمد الغزالي في رسالة : « بسم الله الرحمن الرحيم ... الأخ الكريم الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، نذكركم على البعد ؛ فنذكُر الرقابة الدقيقة على السُّنَّة المطهَّرة ، والغيرة المحمودة على معالم الإسلام الحنيف ، والجهاد العلمي الموصول في ميدان قلَّ فيه الرجال ، واحتاج إلى أُولي النجدة والنضال . فجزاكم الله عن دينه خير الجزاء ، وآنسكم في هجراتكم المتتابعة من قطر إلى قطر ، وأنت خبير بأن أنصار الله في هذا العصر لا يستقرُّون على حال ، وأنهم عُرضة للمتاعب الثِّقال ... » .

وقال الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق شيخ علماء الكويت : « كان ناصر الدين - وما زال - كالمطر لا يُبالي على أي أرض سقط ... عالم من علماء المسلمين ، وعَلَمٌ من أعلام الدعوة إلى الله ، وشيخ المحدِّثين وإمامهم في العصر الراهن .. ألَا وهو أُستاذي محمد ناصر الدين الألباني ، حفظه الله وبارك في عمره .

ناصر الدين الذي لا يكاد يجهله مسلم يهتم بأمر الدعوة إلى الله في العصر الحاضر ، ولا يستطيع أن يستغني عن مؤلَّفاته وتحقيقاته طالب علْم معاصر ؛ فمعظم الكتب العلمية التي يتداولها الناس الآن مصدَّرة بتحقيقاته وتخريجه لأحاديثها ، وطُلاب العلم الذين نقلوا علمه، وتتلمذوا على يديه ، وتربّوْا في حلقاته وصُحْبته ،

---

(١) الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه . لمحمد بن إبراهيم الشيباني صـ٦٥ - ٦٦ ، الدار السلفية بالكويت .

لا يُحصَوْن كثرة، وهم منتشرون في العالم الإسلامي أجمع على اختلاف مشاربهم وانتماءاتهم .

وقد قام ناصر الدين بنشر العلم الشرعي بكل طاقته في كل اتجاه .

ويرى الشيخ ناصر الدين أن المنهج السلفي لفهم الدين ، هو المنهج الكفيل بعودة المسلمين إلى الدين الحق ؛ عقيدة وعبادة ومعاملة وأخلاقا . وناصر الدين لا يهمّه أن يحمل هذا المنهج السلفي أي أناس تسمَّوا بأي اسم ، كلُّ هَمِّه أن يُفهم هذا الدين فهمًا صحيحًا ، وأن يُطبَّق تطبيقًا سليمًا ، وأن يكون سَيْر الناس مبنيًّا على الكتاب والسنة الصحيحة . والشيخ ينهى عن التَّحَزُّب والعصبية بأي لوْنٍ وأي شكْلٍ ويرى أن نهضة المسلمين منوطة بتعاونهم جميعًا ، وتضافُر جهودهم ، وتوجُّهها في كل اتجاه نحو بناء العقيدة أو تصحيح العمل أو مقارعة الباطل .

وأخذ ناصر الدين نفسه بقول كلمة الحق حيثما قدر على ذلك ، وقام بنقد الآراء الإسلامية التي يراها مُجانبة للصواب والحق وتصحيحها .. لا يُجامل في ذلك أحدًا حتى نفسه ، ولا أخلص محبِّيه وأصدقائه وإخوانه ، ولا أقرانه في العلم من العلماء السلفيِّين ؛ فلا يسمع حديثًا يرى أنه ضعيف إلا بيَّن ضعفه عنده ، ولا يسمع رأيًا مخالفًا للحق إلا كتب عنه ، ونبَّه عليه ؛ نُصْحًا للعامَّة ، وتنبيهًا للخاصَّة .

وقد أنشأ بذلك حركة عظيمة للوعي الديني وتحرِّي الحق فيما يُكتب ويُقال ، لا عند طائفة خاصّة فقط ، بل عند عامة العلماء الذين يُؤخذ عنهم أو يتتلمذ الناس على أيديهم ؛ ولهذا قدَّمت طائفة كبيرة منهم كتبهم له لنقدها وتصحيح أحاديثها ، وبذلك استفاد من هذا المنهج عموم المسلمين ، فقلَّ استخدام الحديث الضعيف ، وعظُم تحري الناس للحق ، وابتدأ الناس فَهْم الدين بطريقة علميّة مبنيّة على الدليل والبرهان ، بعد أن كان أخْذ الدين وتلقِّيه

سائرًا بطـريق التقليد والعشوائية ، وضمٌّ الصحيح إلى الضعيف ، والشرك إلـى التوحيد ، وجمْع الهدى مع الضلالة والبدعة مع السنة .

ولكن هذا المنهج النقدي العلمي الذي أخذ الشيخ نفسه به، أوجد لناصر الدين مجموعات كبيرة من الحاسدين ، فمُجرَّد أن يرى أحدُ المتعالين أنه نُقِد في رأي له ، أو استدلالٍ خاطئ ؛ إذا به يتقلب على الشيخ تجريحًا . وهكذا وُجِد الذين يقدِّمون آراءهم على قول الله وقول رسوله .

ولا شك أن هذه هي سنة الله فيمن يصدع بالحق ، والعجب أن ناصر الدين لا يأبه لذلك ، فقد لازمتُه ثلاث سنوات ؛ فوجدتُ أن مدْح الناس له ومـذمَّتهم عنده سواء !! إنه فقط يرى أنه حامل دعوة ، وصاحب حق يريـد إبلاغه.. ولا نُزَكِّيه على الله ونحسبُه في ذلك كلّه مخلصًا دينه لله، والله أعلم بالسرائر».

ولله در شيخ حلب : الشيخ محمد نسيب الرفاعي – رحمه الله – حين يقـول عن دُرَّة السنـة وتاج الأثر – الألباني –: « الشيخ ناصر:أنفاسـه أنفـاس رسول الله ﷺ ، وهو صاحب فضل عليَّ » . وإذا قال له معترض أو متلجلج : إن الشيخ ناصر يُحَسِّن – أو يصحِّح – اليوم ما يكون ضعَّفه بالأمس ، والعكس بالعكس . فيُجيب رحمه الله – مُخْرِسًا له –: « هذا من مناقب الشيخ ناصر وحسناته » . رحمك الله يا شيخ نسيب ، لقد كنتَ – والذي أماتك وأحياك – وقَّافًا عند أدب النبوة ، « ويعرف لعالِمنَا حقَّه »[(١)] .

ثناء الشيخ محمد إبراهيم شقرة على شيخه الألباني :

قال : لو أن شهادات أهل العصر في شيوخ السنة وأعلام الحديث والأثر

---

(١) الشيخ محمد نسيب الرفاعي صفحة دعوية طُويت . لمحمد إبراهيم شقرة – مقـال في مجلة الأصالة العدد الثالث صـ٢٨،والمذكور قطعة من حديث حسن . رواه الحاكم وأحمد عن عبادة .

اجتمعت، ثم وضِعت على منضدة تاريخ العلماء؛ فإني أحسب أن تكون شهادة صادقة في عَلَم الحديث الأوحد ، أستاذ العلماء ، وشيخ الفقهاء ، ورأس المجتهدين في هذا الزمان : الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، أكرمه الله في الدارين .

كانت ساحةُ علم الحديث والسنة النبوية قد أجدبت ، وصوَّح نَبْتُها ، وجفَّت أغصانها واسَّاقطت أوراقها ، وانقطع ثمرها ، والناس من فوقها ينظرون يَمنةً ويَسرةً ، علَّهم يرون فيها رجلًا يخلُف الأولين الغابرين ، ممن أعلى الله بهم منارة السنة النبوية ، فتعود أبصارهم إليهم كليلةً حاسرةً ، ليجدوا أمامهم ما خلَّف أولئك من كتبٍ مسطورةٍ لمن وراءهم ، أوْ لمن جاء من بعده ، بذلوا فيها جهدًا ضخمًا في جمْع الآثار والسنن والأحاديث ، وترتيبها ترتيبًا حسنًا يُسهِّل على القارئ - العالم وطالب العلم - النظر إليها ، والرجوع إليها عند الحاجة ، على ما في بعض هذه الكتب من صعوبة في استخراج الآثار والأحاديث منها ، وهذا أمرٌ لا يجهله طالب العلم ، فضلًا عن العالم الباحث ، والناظر المدقِّق .

وكُتُب السُّنَّة ، من صحاحٍ ، وسُنَن ، ومسانيد ، وجوامع ، ومصنَّفات ، وأجزاء ، على كثرتها وغزارة الجهد الذي بُذِل في تأليفها وتصنيفها وجمعها وتحقيقها ، والاستدراك عليها ، والزيادة على أصولها على مَرِّ العصور والأجيال - فقد ظلَّت بحاجة إلى تحقيقٍ دقيق ، وإحاطةٍ أشمل وأوسع بأسانيد الآثار والسنن والأحاديث التي حُشِدت فيها ؛ كي تصيرَ إلى حالٍ من الصحة ، ويطمئن إليها الباحثُ وطالب العلم والعالِم أكثر وأكثر .

ولا ريب أن مثل هذا العمل ينوء بالعصبة أولي القوة والجلادة من أهل العلم ، فأَنْ يقيِّض الله له رجلًا واحدًا ، يجمع الله به كل شاذَّةٍ وفاذَّة من فنون علم السنة؛ لَنعمةٌ جليلة، ليس على الشيخ ناصر وحده، بل على الأمة كلها، فهنيئًا لأمَّةٍ أنبت الله فيها هذا الشيخ الذي ألانَ الله له الحديث كما ألان لداود

الحديد ، ومُهِّدت له أكناف السنة من جديد .

ولعلَّ بعض من ابتُلي بشيءٍ من شهادات العصر من الجامعات والمعاهد ، يردِّد مع القائلين قولهم : ما ترك السابقون للَّاحقين شيئًا ، أوْ : ما ترك الأوَّلون للآخرين شيئًا .

قولوا ما شئتم ، ولكن ماذا كان يُراد بهذا العلم العظيم - علم السنة - لو أنه ظل أمانة عند هؤلاء - وما أضيعها إذًا من أمانة - ولم يجد في عقل الشيخ ناصر وقلبه وقوة نفسه وثبات صبره واحتمال مثابرته ما وجد ؟!

وكثيرٌ هم أولئك الذين يجعلون من الشيخ - أعزَّه الله - غرضًا لسهام حسدهم وحقدهم ، وتراهم يحومون حول مائدته حَوْم المريب المفزع الذي يخشى أن يُبصر به مَن هو على شاكلته ، يصنعون صنيع النفر من قريش ، حين اتفقوا على أن يتفرَّقوا عن النبي ﷺ ، وأن لا يُصغوا لقراءاته من الليل ، فلمَّا جنَّ الليل خرج كل منهم متسلِّلًا ، لائذًا بلباس الظلام، وهو يظن أن الآخرين لا يعرفونه .

وحسْبُ طالب العلم أن يُلِمَّ بأي كتاب من كتب الشيخ؛ ليرى رسوخ قدمه، وطول باعه، وسعة اطلاعه وكثرة استدراكه ، ودِقَّة استقصائه ، وحُسْن ترتيبه ونظمه ، وتلاحُق حججه ، وعُلو برهانه ، وحضور ذهنه ، وقوة عارضته ، ونفاذ بصره ، ووضوح بصيرته ، وشدَّة تمكُّنه . ولكن كما يُقال : المعاصرة حرمان . غير أنها كلمة إن صَدقت في غير الشيخ ، فهي قد نَبَتْ عنه ونأتْ ، فأي حرمانٍ هذا الذي أراده إليه الشانئون الجاهلون ، ومدرستُه قد امتدَّت أرْوِقتُها حتى شملت آفاق الأرض ، وصارت كتُبه في صَمْتٍ مهيبٍ تحرِّرُ العقول من الخرافة والأساطير ، والقلوب من الوهم والرَّيْب ، والنفوس من الغلِّ والكبرياء والحسد؛ في حكمةٍ بالغة، وبرهانٍ منير ، وموعظةٍ تبلُغ من النفوس مبلغًا يرفع عنها غشاوات الجهالة ، ويردُّها إلى القرون الثلاثة المفضَّلة ، ويشدُّها إلى وثاق

الهدي النبوي الأمين .

ومَن نظر في حياة الشيخ ، وعرفه عن قُرْب ؛ عَرف أنه من أولئك الأفذاذ الذين قلما يجودُ الزمان بمثله(١) .

كلمة للشيخ مقبل بن هادي الوادعي :

قال الشيخ مقبل عن الشيخ ناصر : « إن الشيخ محمد ناصر الدين الألباني – حفظه الله تعالى – لا يُوجَد له نظير في علم الحديث، وقد نفع الله بعلمه وكتبه أضعاف أضعاف ما يقوم به أُولئك المتحمِّسُون للإسلام على جَهْلٍ ... أصحاب الثورات والانقلابات .

والذي أعتقده وأدين الله به ، أن الشيخ محمد ناصر الدين الألباني – حفظه الله – من المجدِّدين ، الذين يصدُق عليهم قول الرسول ﷺ : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدِّد لها أمر دينها » . رواه أبو داود ، وصحَّحه العراقي وغيره .

ولا يستغني طالب علم في هذا الزمن عن الاستفادة من كتب الشيخ الألباني حفظه الله، وإني أنصح كلَّ طالب علم باقتنائها والاستفادة منها ، فقد جمع الشيخ – حفظه الله – فيها ما لا يُستطاع الوقوف على كلِّه ، وتيسَّر له الاطلاع على كتب لم يطَّلع عليها كثير من طلبة العلم »(٢) .

إلى شانئي الشيخ غير المنصفين :

ألم يُعِد الشيخ ناصر إلى الأذهان حُجِّيَّة السُّنَّة وفقهها ، ووجوب الرجوع إليها ، بعد أن نُبذت دهورًا ؟!

---

(١) الألباني حياته وآثاره ٢/٥٤٩ – ٥٥٢ .

(٢) الألباني حياته وآثاره ٢/٥٥٥ – ٥٥٦ .

ألم يخدم السنة خدمة تفوق خدمة مجامع البحوث العلمية مجتمعة وجمهرة من العلماء لو اشتغلوا ؟!

ألم يحقِّق عددًا من المخطوطات النافعة ، التي تلزم الأمة في نهضتها ، بل تلزمها أولًا في عقيدتها ودينها ؟!

ألم يوفِّق جميع المسلمين لمعرفة أحاديث الأحكام خاصَّةً ، ودرجة الوثوق بكلِّ حديث ، وكيف يمكن الاحتجاج به ؛ وطريقة الاحتجاج ؟!

ألم يذبَّ عن السنة بجمع الأحاديث الموضوعة والضعيفة في ثلاثة عشر مجلَّدًا ؛ كي يتجنَّبها العلماء الذين لم يعترفوا به ، وجُلُّهم ممن لا يُميِّز بين غثٍّ وسمين ؟!!

ثم أليس للشيخ ناصر أنصاره وأتباعه في كل العالم الإسلامي ؟ وهل يدَّعي طالب علم أنه يستغني عن كتبه إلا إن كان أحمق أو مغرورًا ؟!

أليس الرجل يدعو إلى عقيدة السلف ، ويشرح ويُفصِّل ما أجمله البنا - رحمه الله - من أنَّ دعوته سلفية .

ثم إن الرجل يقول : إن الجهاد فرض عين ، وإن المسلمين كلّهم آثمون . على خلاف ما يُشاع من أنه يحارب الفكر الجهادي .

سنن أحياها الألباني :

١ - صلاة العيد في المصلَّى خارج البلد ، هي السنة .

٢ - خطبة الحاجة ، التي كان رسول الله ﷺ يعلِّمها أصحابه .

٣ - آداب الزفاف في السنة المطهرة .

٤ - أحكام الجنائز وبدعها .

٥ - صحيح الكَلِم الطَّيب ، والتعبُّد بالأدعية والأذكار الصحيحة فقط .

٦ - وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة والردّ على شُبَه المخالفين .

٧ - كيفية أداء الصلاة كما أدّاها رسول الله ﷺ .

٨ - سنة « السلام على النبي في التشهُّد » ، وصيغ التشهد .

الألباني ودعوته :

تُوضع دائمًا في كتب الشيخ ورسائله القواعد الخمس لدعوته :

١ - الرجوع إلى الكتاب الكريم والسنة الصحيحة ، وفهمها على النهج الذي كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم .

٢ - تعريف المسلمين بدينهم الحق ، ودعوتهم إلى العمل بتعاليمه وأحكامه ، والتَّحلِّي بفضائله وآدابه التي تكفُل لهم رضوان الله ، وتحقِّق لهم السعادة والمجد .

٣ - تحذير المسلمين من الشرك على اختلاف مظاهره ، ومن البدع والأفكار الدخيلة ، أو الأحاديث المنكرة والموضوعة ؛ التي شوهت جمال الإسلام وحالت دون تقدُّم المسلمين .

٤ - إحياء التفكير الإسلامي الحر في حدود القواعد الإسلامية ، وإزالة الجمود الفكري الذي ران على عقول كثير من المسلمين ، وأبعدهم عن منهل الإسلام الصافي .

٥ - السعي نحو استئناف حياة إسلامية ، وإنشاء مجتمع إسلامي ، وتطبيق حكم الله في الأرض .

الشيخ الألباني رائد التصفية والتربية؛ الطريق الرشيد لبناء الكيان الإسلامي :

يقول الشيخ الألباني : « أقول وأخصُّ به المسلمين الثقات ، المتمثِّلين في الشباب الواعي ، الذي عرف أولا مأساة المسلمين ، واهتمَّ ثانيًا بالبحث الصادق عن الخلاص وبكل ما أُوتيه من قوة ... بينما الملايين من المسلمين مسلمون

بحكم الواقع الجغرافي أو في تذكرة النفوس[١] ... فهؤلاء لا أعنيهم بالحديث ، أعود فأقول : إن الخلاص على أيدي هؤلاء الشباب يتمثَّل في أمرين لا ثالث لهما ؛ التصفية والتربية .

التصفية: وأعني بالتصفية: تقديم الإسلام إلى الشباب المسلم مصفًّى من كل ما دخل فيه على مرِّ هذه القرون والسنين الطوال ؛ من العقائد ومن الخرافات ومن البدع والضلالات ، ومن ذلك ما دخل فيه من أحاديث غير صحيحة قد تكون موضوعة،فلابد من تحقيق هذه التصفية ؛ لأنه بغيرها لا مجال أبدًا لتحقيق أمنية هؤلاء المسلمين ، الذين نعتبرهم من المصطفين المختارين في العالم الإسلامي الواسع .

فالتصفية هذه إنما يُراد بها تقديم العلاج الذي هو الإسلام ، الذي عالج ما يشبه هذه المشكلة ، حينما كان العرب أذلَّاء وكانوا يُستعبدون من فارس والروم والحبشة من جهة،وكانوا يعبدون غير الله تبارك وتعالى من جهة أخرى .

نحن نخالف كل الجماعات الإسلامية في هذه النقطة ، ونرى أنه لا بد من البدء بالتصفية والتربية معًا ، أما أن نبدأ بالأمور السياسية ، والذين يشتغلون بالسياسة قد تكون عقائدهم خرابًا يبابًا ، وقد يكون سلوكهم من الناحية الإسلامية بعيدًا عن الشريعة ، والذين يشتغلون بتكتيل الناس وتجميعهم على كلمة « إسلام » عامة ، ليس لهم مفاهيم واضحة في أذهان هؤلاء المتكتِّلين حول أولئك الدعاة ، ومن ثَمَّ ليس لهذا الإسلام أي أثر في منطلقهم في حياتهم ، ولهذا تجد كثيرًا من هؤلاء وهؤلاء لا يحقِّقون الإسلام في ذوات أنفسهم، فيما يمكنُهم أن يطبِّقوه بكل سهولة . وفي الوقت نفسه يرفع هؤلاء أصواتهم بأنه لا حكم إلا لله ، ولا بد أن يكون الحكم بما أنزل الله ؛ وهذه كلمة حقٍّ ، ولكن فاقد الشيء لا يعطيه .

---

(١) الجنسية أو البطاقة أو شهادة الميلاد .

العلة الأولى الكبرى : بُعْدهم عن فهْم الإسلام فهمًا صحيحًا ، كيف لا وفي الدعاة اليوم من يعتبر السلفيين بأنهم يضيِّعون عمرهم في التوحيد ، ويا سبحان الله ، ما أشد إغراق من يقول مثل هذا الكلام في الجهل ؛ لأنه يتغافل - إن لم يكن غافلًا حقًّا - عن أن دعوة الأنبياء والرسل الكرام كانت ﴿ **أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾ . بل إن نوحًا عليه الصلاة والسلام أقام ألف سنة إلا خمسين عامًا ، لا يصلح ولا يشرع ، ولا يقيم سياسة ، بل : يا قوم اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت .

هل كان هناك إصلاح ؟ هل هناك تشريع ؟! هل هناك سياسة ؟ لا شيء ، تعالوا يا قوم اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فهذا أول رسول - بنص الحديث الصحيح- أُرسل إلى الأرض، استمرَّ في الدعوة ألف سنة إلا خمسين عامًا لا يدعو إلا إلى التوحيد ، وهو شغْل السلفيين الشاغل ، فكيف يُسفُّ كثير من الدعاة الإسلاميين وينحطُّوا إلى درجة أن ينكروا ذلك على السلفيين .

التربية : والشطر الثاني من هذه الكلمة يعني أنه لا بد من تربية المسلمين اليوم ، تربية على أساس ألا يُفتنوا كما فُتِن الذين من قبلهم بالدنيا . ويقول الرسول ﷺ : « ما الفقرَ أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تُفتح عليكم زهرة الحياة الدنيا ، فتهلككم كما أهلكت الذين من قبلكم » . ولهذا نرى أنه قلَّ مَنْ ينتبه لهذا المرض فيربي الشباب ، لاسيما الشباب الذين فتح الله عليهم كنوز الأرض ، وأغرقهم في خيراته - تبارك وتعالى - وفي بركات الأرض، قلَّما يُنبَّه إلى هذا . مرض يجب على المسلمين أن يتحصَّنوا منه، وأن لا يصل إلى قلوبهم « حب الدنيا وكراهة الموت » ، إذًا فهذا مرض لا بد من معالجته ، وتربية الناس على أن يَتخلصوا منه .

الحل وارد في ختام حديث الرسول ﷺ: «حتى ترجعوا إلى دينكم». الحل يتمثَّل في العودة الصحيحة إلى الإسلام ، الإسلام بالمفهوم الصحيح الذي كان عليه

رسول الله ﷺ وصحابته .

قال تعالى : ﴿ **إن تنصروا الله ينصُرْكم** ﴾ [محمد : ٧] وهي التي أجمع المفسرون على أنَّ معنى نصر الله: إنما هو بالعمل بأحكامه، فإذا كان نصر الله لا يتحقق إلا بإقامة أحكامه ، فكيف يمكننا أن ندخل في الجهاد عمليًّا ونحن لم ننصر الله ؛ عقيدتنا خراب يباب ، وأخلاقنا تتماشى مع الفساد ، لا بد إذًا قبل الشروع بالجهاد من تصحيح العقيدة وتربية النفس ، وعلى محاربة كل غفلةٍ أو تغافُل، وكلِّ خلافٍ أو تنازع؛ ﴿**ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحُكم**﴾ [الأنفال:٤٦] وحين نقضي على هذا التنازع وعلى هذه الغفلة، ونُحِلُّ محلهما الصحوة والائتلاف والاتفاق ؛ نتجه إلى تحقيق القوة المادية ﴿ **وأعدُّوا لهم ما استطعْتُم من قوة ومن رباط الخيل** ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

أخلاق المسلمين في التربية خراب يباب ، أخطاء قاتلة، ولا بد من التصفية والتربية والعودة الصحيحة إلى الإسلام ، وكم يعجبني في هذا المقام قول أحد الدعاة الإسلاميين – من غير السّلفيين ، ولكن أصحابه لا يعملون بهذا القول –: « أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تقم دولته في أرضكم » .. إن أكثر الدعاة المسلمين يخطئون حين يغفلون مبدأنا هذا ، وحين يقولون : إن الوقت ليس وقت التصفية والتربية ، وإنما هو وقت التكتُّل والتجمُّع .. إذ كيف يتحقَّق التكتُّل والخلاف قائم في الأصول والفروع .. إنه الضعف والتخلُّف الذي استشرى في المسلمين .. ودواؤه الوحيد يتلخَّص فيما أسلفتُ في العودة السليمة إلى الإسلام الصحيح ، أو في تطبيق منهجنا في التصفية والتربية ، ولعلَّ في هذا القدر كفاية . والحمد لله رب العالمين »[1] .

---

(١) الألباني حياته وآثاره ١/٣٧٧ – ٣٩١ .

« إنما الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة »[1] :

هذا الحديث تصوير صحيح لواقعنا المر .. الذي نهدت فيه رغائب الأُمة في شعاب التفرُّق والأهواء ، واستطالت فيه آراء العقول من غير هدًى ولا كتاب منير ، واعتسفت فيه مائدات السوء بالناس إلى سرابٍ بِقِيعَةٍ ، فصاروا إلى ضياعٍ في الحق ، وإقلالٍ في الورع ، وتكاثرٍ من الباطل ، فأضحوا كما قال عليه الصلاة والسلام : « كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة » .

والشيخ الألباني حفظه الله - في زماننا هذا - راحلة علم عالية السَّنَام ، تامّة الخلق ، متماسكة البناء ، تغدو إليها رواحل العلم خِفافًا خماصًا ، وتروح عنها ثقالًا بطانًا ؛ فقد أنعم الله عليه بعلم أوثَقَه إلى القرون الأولى ، وأقامه على جادتها ، وأراه فيها من آيات العلم الكبرى ، وما نيل من الشيخ إلا بسبب الحسد .

لم ير أشياخ العصر فسطاط علم الشيخ يمتدُّ ويمتدُّ كلَّ يوم ، ويأوي إليه الألوف من المسلمين ، الذين استنارت بصائرهم بنور الحق وهُدوا إلى سواء القصد ، حين أُلهموا أن ينهلوا من علم الشيخ في كتبه ورسائله وتسجيلاته من بعيد ومن قريب . في حين أن « المشايخ » و« الأشياخ » و« الشيخة » و« المشيوخاء » يُصرُّون على عداوته ، والطعن عليه ، وتجريحه ، والقول فيه ما لم يقله أهل الجاهلية الأولى ! وإنها - والله - الفتنة ؛ فتنة النفس الأمّارة ، القرَّارة ، الجرَّارة ، البوّارة ، الموَّارة !!

إنها أمشاج العلم تتهارش في رَدَخَة خلائف التعصُّب من بعد المنارات التي علت في سماء القرون وضوَّأت آفاق الحياة ، وأقبلت إليها ركائب طُلَّاب المعرفة من كل الأقطار ، تنهل من معينها الثَّرِّ الصافي .

---

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر .

نسأل المشيوخاء والدكاتير : هل أحسنوا صُنعًا في أنفسهم حين هاجت هائجتهم ، وخرخرت أصواتهم ، وتسعَّرت لَهَواتُهم ، ورقصت قلوبهم ، وكتبوا في الصحف التي لا تزيد أعلاها أن تكون أقل من « خضراء الدِّمَن » تحمل لواء الولاء لكل صاحب بلاء كحاطب الليلة الظلماء .

نسأل كل من تدثَّر بخيالات الأطفال السُّذَّج ، بسوء أدب ، وكُزوزة وجه ، وبلادة حس ، وقماءة رجولة ، وركاكة دين ، وفهاهة لسان ، وخيلاء مجانين ، وكبرياء صاغرين ، وحقارة حاسدين : ما تنقمون على من يضع على منكبيه رداء علوم السُّنَّة ، فيكون الإمام المقدَّم في عصر أجدبت فيه الأرض من مثله وأبت - حتى على نفسها بإذن ربها - أن يكون له نِدٌّ إلا نفسه ؟! فما رأت عيون المنصفين في عصره مثله ، وإن كره الشانئون ، وخارت أصواتهم ، وبرمت بهم نفوسهم ، من غلٍّ أثقلها ومن حسدٍ أقعدها ، ومن روغانٍ عن الحق أبعدها .

لقد أعاد حفظه الله عَيْبَة العلم ملأى بصدق رغبته ، وجلادة نفسه ، وثقوب بصره ، وطول معاناته ، وعزمه أن تعود سنة الرسول ﷺ إلى الظهور من جديد في الأمة ؛ لتكون موئل العلماء وطلاب العلم ، ومربد العقول ، ومزدحم العزائم ، ودارة الحق والهدى .

لقد - والله - أذكر علم الشيخ بعلم السابقين ، ولو كان في زمانهم لعرفوا له قدره .

ويكفي الشيخ نُصْرةً من ربه ، أنْ نَصَبَهُ لنشْر راية سنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، وكسْر شوكة البدعة ، والكشف عن زيوف دهاقنة العجم ، وفضْح خروج المعتزلة ، والإبانة عن عورات أنصار العقائد الفاسدة ، وجهالات سِمَانِ الإفك والضلالة .

ويكفي الشيخ نُصْرةً من ربِّه ، أنه إذا ذُكِر ذُكر الكتاب والسنة ؛ فقد

أعلى الله في الأرض ذكره ، وصَيَّره أمينًا حافظًا لأسانيد الأخبار ومتون السنن ، ومكَّنَهُ من فقهها ما لم يُمكِّن لأحدٍ في عصره ، وآتاه من علومها ما لم يؤتِ أحدًا .

فإلى كلِّ صاحبِ همَّةٍ علمية قعساء ، إلى كلِّ أفَّاكٍ هائجٍ ، وكلِّ متعالم مختلط ، وكلِّ مُغْرِضٍ باهت .

يا ناطحَ الجبل العالي لتَكْلِمَهُ   أشْفِقْ على الرأسِ لا تُشْفِقْ على الجبلِ

وختامًا : اعلم « أن لحوم العلماء مسمومة ، وعادة الله في هَتْك أستار مُنْتقِصِيهم معلومة »[(1)(2)] .

وختامًا : فهذه نقطة في بحر همة الشيخ ومجدِّد العصر في طلب العلم والحرص عليه .. كيف ضاعت منه ورقة واحدة فقط من مخطوطة فمن أجلها قرأ مَجلَّدات المكتبة الظاهرية من المخطوطات ، ولنسمع إلى الشيخ الشيباني وهو يتحدَّث عن فهرسة الشيخ الألباني لمخطوطات المكتبة الظاهرية : ترجع قصة عمل هذا الفهرس إلى أن المجمع العلمي العربي السوري قد طلب من الشيخ - بحكم معرفته بدار الكتب الظاهرية « قسم الحديث ومخطوطاته » ، والخبير به - أن يُعِدَّ فهرسًا في المخطوطات الحديثية المحفوظة بالدار ، وكان الشيخ قد وضع منذ عشرات السنين فهرسًا خاصًّا به ، ثم طلبت منه إدارة المكتبة الظاهرية إعداد فهرس لمخطوطات الحديث ، وقد شرح لنا الشيخ ذلك في قصة طريفة ظريفة تتجلَّى فيها ثمرة الدَّأب ، والصبر على تقصِّي مسائل العلم عند الشيخ . وقد كشف في هذا الفهرس عن كثير من المخطوطات القيِّمة ، التي لا يعرف أسماء بعضها أو الكثير منها - فضلًا عن أعيانها - أحدٌ،فاقتضاه الإعداد المذكور الرجوع مجددًا إلى مئات المجلَّدات من المخطوطات المشار إليها ؛ لأجل التثبُّت والتحقُّق من صحَّة الأرقام والأوصاف المذكورة في الفهرس . واستدرك ما يمكن

(١) تبيين كذب المفتري ، لابن عساكر صـ٢٩ - ٣٠ .

(٢) ماذا ينقمون من الشيخ ؟ للشيخ محمد إبراهيم شقرة .

استدراكه من الكتب التي فاته سابقًا تسجيلها وإحصاؤها ، فأضحى هذا الفهرست الفريد من نوعه في عالم الفهارس لعالم ليس هذا تخصُّصه ، وأخيرًا فلنستمع أيُّها القارئ إلى الشيخ يحكي قصة وضْع هذا الفهرس .

سبب تأليف الفهرس : الورقة الضائعة :

لم يكن ليخطر في بالي وضْع مثل هذا الفهرس ؛ لأنه ليس من اختصاصي ، وليس عندي متَّسع من الوقت ليساعدني عليه ، ولكن الله تبارك وتعالى إذا أراد شيئًا هيَّأ أسبابه ؛ فقد ابتُليتُ بمرض خفيف أصاب بصري ، منذ أكثر من اثني عشر عامًا ، فنصحني الطبيب المختص بالراحة ، وتَرْك القراءة والكتابة والعمل في المهنة - تصليح الساعات - مقدار ستة أشهر ؛ فعملتُ بنصيحته أول الأمر ، فتركتُ ذلك كله نحو أسبوعين ، ثم أخذتْ نفسي تُراودني وتزيِّن لي أن أعمل شيئًا في هذه العطلة المُمِلَّة ، عملًا لا يُنافي بزعمي نصيحته ، فتذكَّرت رسالة مخطوطة في المكتبة ، اسمها « ذم الملاهي » للحافظ ابن أبي الدنيا ، لم تُطبع فيما أعلم يومئذ ، فقلت : ما المانع من أن أُكلِّف من ينسخها لي ؟ وحتى يتمَّ نسخها ، ويأتي وقت مقابلتها بالأصل ، يكون قد مضى زمن لا بأس به من الراحة ، فبإمكاني يومئذ مقابلتها ، وهي لا تستدعي جهدًا ينافي الوضع الصحي الذي أنا فيه ، ثم أُحقِّقها بعد ذلك على مهل ، وأُخرِّج أحاديثها ، ثم نطبعها ، وكل ذلك على فترات لكي لا أشق على نفسي . فلما وصل الناسخ إلى منتصف الرسالة ، أبلغني أن فيها نقصًا ، فأمرته بأن يُتابع نسْخها حتى ينتهي منها ، ثم قابلتُها معه على الأصل ، فتأكَّدت من النقص الذي أشار إليه ، وأُقدِّره بأربع صفحات في ورقةٍ واحدة في منتصف الكراس ، فأخذتُ أفكِّر فيها ، وكيف يمكنني العثور عليها ؟ والرسالة محفوظة في مجلد من المجلدات الموضوعة في المكتبة تحت عنوان « مجاميع » ، وفي كل مجلد منها على الغالب عدد كبير من الرسائل والكتب ، مختلفة الخطوط والمواضيع والورق، لونًا وقياسًا . فقلت في نفسي : لعلَّ الورقة

الضائعة قد خلطها المجلِّد سهوًا في مجلّدٍ آخر من هذه المجلدات . فرأيتني مندفعًا بكل رغبة ونشاط باحثًا عنها فيها على التسلسل ، ونسيت أو تناسيت نفسي ، والوضع الصحي الذي أنا فيه ، فإذا ما تذكرته ، لم أعدم ما أتعلَّل به ، من مثل القول بأن هذا البحث لا يُنافيه ؛ لأنه لا يصحبه كتابة ولا قراءة مضنية . وما كدتُ أتجاوز بعض المجلدات ، حتى أخذ يسترعي انتباهي عناوين بعض الرسائل والمؤلفات لمحدِّثين مشهورين ، وحُفَّاظ معروفين ، فأقف عندها ، باحثًا لها ، دارسًا إياها ، فأتمنى لو أنها تُنْسخ وتُحقَّق ثم تُطبع ، ولكني كنتُ أجدها في غالب الأحيان ناقصة الأطراف والأجزاء فأجد الثاني دون الأول مثلًا ، بحثًا عن الورقة الضائعة ، ولكن عبثًا حتى انتهت مجلدات « المجاميع » البالغ عددها (١٥٢) مجلدًا . بيد أني وجدتني في أثناء المتابعة أخذت أُسجِّل في مسوّدتي عناوين بعض الكتب التي راقتني ، وشجعني على ذلك أنني عثرت في أثناء البحث فيها على بعض النواقص ، التي كانت قبل من الصوارف عن التسجيل .

ولما لم أعثر على الورقة في المجلدات المذكورة، قلت في نفسي: لعلها خِيطت خطأً في مجلَّد من مجلَّدات كتب الحديث ، والمسجلة في المكتبة تحت عنوان « حديث » . فأخذتُ أقلِّبُها مجلدًا مجلدًا ، حتى انتهيتُ منها دون أن أقف عليها ، ولكني سجَّلت أيضًا عندي ما شاء الله تعالى من المؤلَّفات والرسائل ، وهكذا لم أزل أُعلِّل النفس وأُمنِّيها بالحصول على الورقة ، فأنتقل في البحث عنها بين مجلدات المكتبة ورسائلها من علم إلى آخر ، حتى أتيت على جميع المخطوطات المحفوظة في المكتبة ، والبالغ عددها نحو عشرة آلاف مخطوط ، دون أن أحظى بها .

ولكني لم أيأس بعد ، فهناك ما يعرف بـ « الدست » ، وهو عبارة عن مكدّسات من الأوراق والكراريس المتنوعة التي لا يُعرف أصلها ، فأخذت في البحث فيها بدقَّة وعناية ، ولكن دون جدوى . وحينئذٍ يئست من الورقة ،

ولكني نظرتُ فوجدتُ أن الله تبارك وتعالى قد فتح لي - من ورائها - بابًا عظيمًا من العلم ، طالما كنتُ غافلًا عنه كغيري ؛ وهو أن في المكتبة الظاهرية كنوزًا من الكتب والرسائل في مختلف العلوم النافعة التي خلَّفها لنا أجدادنا رحمهم الله تعالى ، وفيها من نوادر المخطوطات التي قد لا تُوجد في غيرها من المكتبات العالمية ، مما لم يطبع بعد .

فلما تبيَّن لي ذلك ، واستحكم في قلبي ؛ استأنفتُ دراسة مخطوطات المكتبة كلها من أولها إلى آخرها للمرة الثانية ، على ضوء تجربتي السابقة التي سجَّلت فيها ما انتقيت فقط من الكتب ، فأخذتُ أسجِّل الآن كل ما يتعلَّق بعلم الحديث منها ما يفيدني في تخصُّصي ، لا أترك شاردةً ولا واردةً إلَّا سجَّلتها ، حتى لو كانت ورقة واحدة من كتاب أو جزء مجهول الهوية . وكأنَّ الله تبارك وتعالى كان يُعِدُّني بذلك كلّه للمرحلة الثالثة والأخيرة ؛ وهي دراسة هذه الكتب دراسةً دقيقةً ، واستخراج ما فيها من الحديث النبوي مع أسانيده وطرقه ، وغير ذلك من الفوائد ؛ فإني كنت في أثناء المرحلة الثانية ، ألتقط نُتَفًا من هذه الفوائد التي أعثر عليها عفوًا ، فما كدت أنتهي منها حتى تشبَّعت بضرورة دراستها كتابًا كتابًا ، وجزءًا جزءًا ؛ ولذلك فقد شمَّرت عن ساعد الجد ، واستأنفت الدراسة للمرة الثالثة ، لا أدع صحيفة إلا تصفَّحتُها ، ولا ورقة شاردة إلا قرأتُها ، واستخرجتُ منها ما أعثُر عليه من فائدة علمية ، وحديث نبوي شريف ، فتجمَّع عندي بها نحو أربعين مجلَّدًا ، في كل مجلد نحو أربعمائة ورقة ، في كل ورقة حديث واحد ، معزّو إلى جميع المصادر التي وجدتُه فيها ، مع أسانيده وطرقه ، ورتَّبتُ الأحاديث فيها على حروف المعجم ، ومن هذه المجلَّدات أُغذّي كلَّ مؤلَّفاتي ومشاريعي العلمية ، الأمر الذي يساعدني على التحقيق العلمي ، الذي لا يتيسَّر لأكثر أهل العلم لا سيما

في هذا الزمان الذي قنعوا فيه بالرجوع إلى بعض المختصرات في علم الحديث وغيره من المطبوعات !! فهذه الثروة الحديثية الضخمة التي توفَّرت عندي ، ما كنتُ لأحصُل عليها ، لو لم يُيسِّر الله لي هذه الدراسة بحثًا عن الورقة الضائعة !! فالحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات .

